

(قال: ومعهُ يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به) (١).

فقلت: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلِكَ، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأنتي. قال: فذهبت إلى أهلي) (٢).

يا الله.. رجل غريب لا يضمُر إلا خيراً.. جاء يبحث عن الحق، فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه، ويريد أن يستزيد.. أن يعرف أسماء هؤلاء الأتباع، فلا يعطي أي اسم رغم أنه مؤمن، كما أنه ليس من أهل مكة، مما يقلل من خطورة اعترافه لو قبض عليه.

عمرو بن عبسة لا يشكل خطراً على الدعوة الجديدة، ومع ذلك لا يعطيه النبي ﷺ أية أسماء، أو معلومات سوى التوحيد والنبوة. وعندما سأله عن أصحابه ورفاقه؟ أجابه إجابة مغلقة ولطيفة، ولكنها بالغة الذكاء والسرية. قال ﷺ: (عبد وحر) فقط عبد وحر.. لم يقل: معي بلال.. لم يقل: معي أبو بكر. الذي قالها هو عمرو بن عبسة.. عرف ذلك فيما بعد.

إن كلمة عبد وحر صفات واسعة ومرنة، بحيث تتسع لتناسب كل أحرار مكة وعبيدها. لكن لا أحد يستطيع تحديد أنسب الأسماء لها. لذا قفل عمرو بن عبسة راجعاً إلى دياره وأهله ليس معه إلا دين الله. لم يعده ﷺ بانتصار دنيوي.. لم يعده بمنصب. وعده فقط بالجنة إن سار على الحق، ولم يمكنه من شيء من أمور الدنيا، حتى ولو كانت أسماء أصحابه التي قد لا تعني له شيئاً، وعمرو بن عبسة لم يجد رسول الله قبل ذلك بسهولة، لقد وصفه بأنه كان مستخفياً.. كان متسترًا لا يظهر نفسه، ولا يكشف أتباعه. إن قريشاً شرسة كالعاصفة، هادرة كالأموج المجنونة، لكن محمداً ﷺ كان رباناً ماهراً.

الجهر بالدعوة

بعد فترة من الزمن لا أستطيع تحديدها (٣) نزل الوحي الكريم.. يأمره بالجهر بدعوته.. الجهر أمام أهله وعشيرته بأنه نبي مرسل، لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه

(١) القائل عمرو بن عبسة وليس رسول الله ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١- ٥٦٩.

(٣) لأن الروايات فيها ضعيفة. يقال أنها مقدار ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغاً دون إسناد. ورواها ابن سعد (١٩٩/١) من طريق الواقدي - وهو ضعيف جداً - عن القاسم مرسلًا. وعن عروة مرسلًا أيضاً.

خوفاً عليهم، ولا كيف اتبعوه. لقد ظل ذلك مدفوناً عن الأعين، فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف، ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيباً.

وقصة ذلك أنه عندما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١). قصد النبي عليه السلام مكاناً مرتفعاً وهو عبارة عن جبل صغير اسمه الصفا (صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا الذي يهتف ؟ قالوا محمد)^(٢) (فر انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجراً. ثم نادى: يا بني عبد مناف، إنني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربو أهله، فخشى أن يسبقوه، فهتف: يا صباحاه)^(٣). شبه النبي عليه السلام نفسه لعشيرته برجل شاهد الأعداء قد أقبلوا فأسرع إلى قومه، ومن خوفه أن يسبقه الأعداء صار يقذف بصوته أمامه عله يصل قبله.. صار يصيح بصوت مرتفع، كي ينتبه قومه بكلمة يستخدمها العرب: يا صباحاه.

واصل ﷺ تحذيره فقال: (يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سألها ببلالها)^(٤). (يا معشر قريش.. اشترتوا بأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف.. لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد.. سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)^(٥).

كانت مفاجأة لمعظم قريش.. ما الذي يحدث؛ ولم هذا التحذير؟ الكل مذهول.. الكل مأخوذ.. الكل ساكت إلا عم لرسول الله ﷺ اسمه عبد العزى، ويلقب ب(أبي لهب)، والذي قرر أن يكون أول عار على قومه:

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) حديث صحيح: رواه مسلم - الإيمان ١-١٩٣.

(٣) حديث صحيح: رواه مسلم - ١-١٩٣.

(٤) حديث صحيح: رواه مسلم أيضاً - ١-١٩٣ الإيمان. أي سأصلكم لأنكم أقاربي.

(٥) حديث صحيح: رواه البخاري ٤-١٧٨٧.

أبو لهب.. أول مكذب

لقد جعل ﷺ (ينادي يا بني فهر، يا بني عدي: لبطن قريش)^(١). فسكتت بطون قريش كلها، فقد أجمها هول ما يقوله الأمين ﷺ، إلا رجلاً ركب رأسه كما ركبتة الأصنام.. ذلك الرجل هو: أبو لهب عم الرسول ﷺ.

يحدثنا أحد أبناء أخيه فيقول: (لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا. فهتف: يا صباحاه. قالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه. قال ﷺ: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

قال أبو لهب: تباً لك.. أما جمعنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَاتُهُ، حَمَالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥)﴾.

وقف أبو لهب في أول الطريق، وفتح ألسنة من اللهب على ابن أخيه الأمين ﷺ. لكن هذه الألسنة أحرقتة هو.

لقد بدأ أبو لهب المواجهة وبدأ التكذيب.. جحد تاريخ محمد الأبيض الذي شهد هو وقومه به قبل لحظات، عندما صاحت مكة بصوت كالرعد يتبعه المطر: ما جربنا عليك كذباً.

ولم يكن أبو لهب وحده في هذه الأولوية، لقد شاركته زوجته أم جميل التي داست على أنوثتها ونافست الرجال شراسة، لقد استحق هذان الاثنان تاريخاً أسود لا يزول أبداً، ولعنة تلوكهم بها ألسن الأجيال.. يحملها جبريل.. سورة تشهد تخلف ذلك الرجل وزوجته وهمجيتهما واستحقاقهما لنار ذات لهب.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-١٢٩٨.

(٢) سورة المسد. والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان ١-١٩٣.

لكن أبا لهب ليس أهلاً أن يعيق الإسلام ولا نبيه.. هاهو ﷺ يتجاوز هراء أبي لهب متوجهاً بدعوة خاصة لـ:

دعوة بني عبد المطلب فقط

كان هذا النداء لأعمامه بني عبد المطلب.. يعلن فيها رسالة ربه بأعلى صوته، ويعلن بداية العزلة الشعورية بينه وبينهم إذا لم يتبعوه، ثم توجه بعد ذلك النداء إلى أقرب الناس إليه. ولكن قبل ذلك أقام لهم وليمة بسيطة حافلة بالبشاشة والمعجزات، يقصها علينا أحد الحاضرين وهو علي بن أبي طالب فيقول: (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط^(١) كلهم يأكل الجذعة^(٢))، ويشرب الفرق^(٣))، فصنع لهم مداً^(٤) من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر^(٥) فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب.

فقال ﷺ: يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبأييني على أن يكون: أخي وصاحبي؟

فلم يقم إليه أحد، فقامت إليه^(٦) - وكنت أصغر القوم- فقال: اجلس - ثلاث مرات- كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس.

حتى كان في الثالثة، ضرب بيده على يدي^(٧) معلناً تفوق هذا الفتى على كافة رجال وشيوخ أسرة النبي ﷺ، ومسارحته للحق وهو في بداية الشباب، في الوقت الذي تراجع فيه أعمامه وكبار السن من أسرته.. تخلفوا وترددوا، وعجيب أمر ترددهم وتخلفهم فالمعجزة أمامهم تغمرهم.. تلجمهم إجماعاً.

(١) رجال أقل من عشرة.

(٢) الجذعة ولد الشاة. له سنتان.

(٣) الفرق مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلاً.

(٤) المد مكيال يساوي (١.٥) رطل أو رطلين.

(٥) الغمر: القدح الصغير.

(٦) المتكلم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو الذي روى لنا هذا الحديث.

(٧) سنده قوي رواه أحمد ١-١٥٩ حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة وهما ثقتان عن عثمان بن المغيرة ثقة عن أبي صادق تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، ثقة أيضاً، وقد بينت في الموسوعة شذوذ بعض الألفاظ. وسبب جرح الذهبي له وعلّة الرواية التي قصدتها الذهبي (٢٤).

هاهو الطعام لا ينقص، وشراب الفرد يكفي العشرات، وقبل ذلك صانع الطعام.. إنه محمد ﷺ الذي لم يجربوا عليه كذباً ولا غشاً، فكيف وقد أتى ببرهان صدقه المعجز!! مد من الطعام لا يشبع فرداً واحداً.. يلتف حوله مجموعة من الرجال.. الفرد منهم يتربع أمام الجذع المطبوخ، فلا ينهض إلا وقد التهمه كله!! ما الذي حدث حتى تقوم كل هذه المجموعة من فحول الرجال، وقد شبت من طعام قليل، بل إنها لا تنقص منه شيئاً. تلك معجزة لا شك.. برهان على صدق ما سيقوله ﷺ لأسرته. ومع ذلك لا ينهض منهم مساند إلا فتى.. هو أصغر القوم.. إنهم ليل.. وعلي بينهم كالصباح نضارة.

إذا فقد أعلن ﷺ أن إلهه هو:

الله وحده لا شريك له

لم تترك قريش محمداً يبوح بما كان يضمره في نفسه ونفوس أصحابه، دون أن تطرح عليه أسئلة ملحة عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. عن هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد وسحقها.

فقال لهم ﷺ وحيأ تتركز عليه كل الحقائق، وتتطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسرارها، فيخشع الكون كله وهو يستمع لمحمد ﷺ يتلو حقيقة طالما أضعها الإنسان فتاه في تلك السراديب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾.

نداء ان منه ﷺ في اجتماعين: الأول مع أهل مكة، والآخر مع أهله.. في الأول واجهه قومه وكذبه أقرب الناس إليه.. عمه أبو لهب، وفي اللقاء الآخر لم يواجهه أهله، لكنهم تخلوا عن الوقوف معه، ولم يرفع يده لنصرته إلا ابن عمه الشاب علي بن أبي طالب. عندها أدرك المؤمنون السابقون أن مهمتهم صعبة، وأن طريقهم شاق، وقد يدفون أرواحهم ضريبة للسير فيه، لكن الجنة كانت هي الجائزة والحقيقة التي تنتظرهم. لذا هانت تلك الأرواح في سبيل الله.

(١) سورة الصمد.

سنة عمالقة فقط تحدوا قريشاً فجاهروا بإسلامهم، ولم يأبهوا بما قد يلاقون من عنت: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)^(١) وفتى صغير السن هو (علي بن أبي طالب) وضع يده بيد رسول الله ﷺ أمام أهله، وكفى بتلك مجاهرة. أما البقية فأتروا العمل بصمت وسرية، فالبطش القادم مخيف ومخيف جداً.

بدأ هؤلاء الأفضاء يدعون لدين الله جهرة، فأسلم بإسلامهم خلق كثير، مما أفض مضاجع الوثنيين، فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ يحملون في أيديهم ألواناً من الأذى والعذاب عله يتراجع، ويتراجع أصحابه معه.

يؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة. امرأة تدعى أم جميل بنت حرب.. زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان، انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۚ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٢ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ بدأت هذه الآيات تحرقها وتشعل اللهب بأعصابها، فخرجت كالمجنونة تلول وتبحث في الدور والطرقات، وتفتش في كل مكان عن انتقام يخمد هذا الجمر الذي يحشو قلبها، تلتقط حجارة من الطريق تبحث عن محمد ﷺ لتضربه بها، وترميه بسلاطة لسانها، بينما كان عليه السلام وصاحبه الصديق مشغولين بالتقاط القلوب.

أسرعت نحو المسجد الحرام فرأت أبا بكر الصديق، فأقبلت عليه وذلك (لما نزلت تبَّتْ يدا أبي لهب.. أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر)^(٢) وهي تقول: مذمم أئبنا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنا ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك. فقال رسول الله

(١) سنده حسن رواه أحمد ٤٠٤-١ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسل ابن كثير ١-٤٩٤ وقد مر معنا.

(٢) الفهر: الحجر.

ﷺ: إنها لن تراني. وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إنني أخبرت، أن صاحبك هجاني؟ فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها^(١).

كانت أم جميل جاهلة متهورة.. تظن تلك الآيات شعراً، فقد قالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، ما شأن صاحبك ينشد في الشعر؟ فقال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾، فما يدريه ما في جيدي..؟ فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً؟.. فإنها لن تراني.. جعل بيني وبينها حجاب. فسألها أبو بكر، فقالت: أتهدأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحداً^(٢)).

ثم توجهت للطواف بالبيت حيث كانت (أم حكيم) عمه رسول الله ﷺ متواجدة هناك، فأبدت أم حكيم احتجاجها بأسلوب مؤدب على كلامها البذيء، وذلك عندما تعثرت أم جميل وهي تطوف بالبيت في مرطها^(٣)، فقالت: تعس مذمم.

فقالت أم حكيم ابنة عبد المطلب: إنني لحصان فما أكلم، وثقاف^(٤) فما أعلم، فكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم^(٥).

عادت أم جميل إلى بيتها تحمل الفشل.. تحمل عارها، وتحمل المزيد من الحطب والشوك تضعه في طريقه ﷺ، وتفتح الأبواب لسفهاء مكة ومراهقيها.. تخرجهم من منازلهم، ليؤذوا معها رسول الله ﷺ.. ليحملوا معها مزيداً من الشوك والحطب، ولما رأى صحابة رسول الله ﷺ ذلك حزنوا وتكدروا، وقرر بعضهم الخروج من كتمانهم والدفاع عن رسول الله ﷺ علانية، فبدأت قريش مشروع التكيل و:

(١) حديث حسن بما بعده، رواه الحميدي ١-١٥٢، حدثنا الوليد بن كثير وهو ثقة من رجال الشيخين عن أبي

الزبير عن أسماء، وأبو الزبير ثقة لكنه مدلس ولم يصرح بالسماع.

(٢) حديث حسن بما قبله رواه البيهقي ٢-١٩٦ من طرق عن الثقة علي بن مسهر، عن الثقة سعيد بن كثير

بن عبيد عن أبيه عن أسماء، وحديث والده جيد في المتابعات وهذا منها.

(٣) ثوبها.

(٤) الحصان الغفيفة، والثقاف هي الفطنة التي تفهم وتدرک.

(٥) جزء من حديث الحميدي.

تعذيب الصحابة

يقول أحد الصحابة: (أول من ظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الودان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد.)^(١).

وعندما سئل أحد الصحابة ذات يوم: (أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به في ترك دينهم؟) أجاب رضي الله عنه فقال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله..؟ فيقول: نعم.. افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)^(٢).

لقد افترش العذاب هذه الأجساد الطاهرة، وطاب له المقام، فغرز أنيابه بلا رحمة.. بلا شفقة.. يشرحها ويشرب من دماها، وقهقهات السكارى والطواغيت حول هذه الأجساد المطروحة لا تجد من يخرسها. حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكيف يفعل وهو لا يستطيع حماية نفسه من هؤلاء الأوغاد.

لقد اضطرت الصحابة إلى اتخاذ إجراء يحمون به رسولهم، فكانوا يتناوبون في حراسته ليلاً ونهاراً، فالتنهار لا يخلو من السفهاء والمتهورين، والليل يخفي سفر الخناجر الغادرة يحملها المتلثمون.

ياسر وزوجته سمية وابنتهما عمار.. أسرة ضعيفة فقيرة، لكنها حرة، ولما رفع ياسر الشيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والألم، لمح رسول الله ﷺ فرأى الحزن والدمع في وجهه، فهانت نفسه، وهان العذاب أمام حزن رسول الله ﷺ، وأحب أن يواسي

(١) حديث حسن مر معنا تخريجه.

(٢) سنده جيد رواه ابن إسحاق / ابن هشام ٢-١٦٢ حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس.. حكيم فيه كلام حول تشييعه، قال أبو زرعة: محله الصدق، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له فهو حسن لذاته أو لغيره.

رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه، فقال: (يا رسول الله الدهر هكذا! فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)^(١)... (أبشروا آل عمار، وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٢).. (اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)^(٣).

كأن ذلك الشيخ الساخر بالعذاب.. يريد أن يطمئن رسول الله ﷺ أنه لا يخشى الشياطين، ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة، ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن هناك من سبقه.

أول الشهداء امرأة

أول المسلمين كان امرأة، وأول اعتداء على رسول الله ﷺ كان امرأة، وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة.. امرأة طاعنة في السن.. اقتادها وثني شرس يقال له: أبو جهل. فاق أبا لهب قسوة وغلظة، فهاهو يجر هذه العجوز الضعيفة.. ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة، ثم يرمي بها نحو الأرض، وبعد أن سلخ جلدتها بالسياط، وحطم أضلاعها بالحجارة تناول رمحاً قطعنها به في موضع عفافها أمام زوجها وابنها، ثم تركها تتخبط بدمائها حتى لفظت أنفاسها وروحها.

"سمية بنت خياط" أم عمار بن ياسر هي تلك الشهيدة التي عجز الطاغوت أبو جهل قاتل النساء، وعجزت سياطه عن الظفر بكلمة ثناء على صنم من أصنامهم، فليس لديها سوى كلمة التوحيد، رفضت أن تتنازل لأبي جهل عنها، حتى جن جنونه قطعنها بكل خسة. إنها كما قال أحد الصحابة: (يقتلوها فتأبى إلا الإسلام)^(٤).

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد ١-٦٢ ثنا عبد الصمد ثنا القاسم بن الفضيل عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن عثمان. وفيه انقطاع بين سالم وعثمان.

(٢) رواه الحاكم ٣-٤٢٨ والبيهقي ١-٢٨٢ والطبراني الأوسط ٢-١٤١ من طرق عن الثقة هشام الدستوائي، عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس، فيشهد له ما سبقه.

(٣) حسن بما قبله رواه الطبراني. الكبير ٢٤ - ٣٠٣ حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ثنا أسد بن خالد عن سليمان بن قرم عن الأعمش عن ابن أبي الزناد عن عبد الله بن الحارث عن عثمان بن عفان، وأسد ضعيف.

(٤) قطعة من حديث سابق هو حديث جابر، وهو حسن.

يسرقون الفقراء

سمية الراحلة.. لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة.. أرادتهم قريش عبيداً، فانتزعوا حریتهم بأيديهم. عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك، فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا.

أحد هؤلاء حر اسمه: خباب بن الأرت.. كان عبداً، فلما أسلم عذبه المشركون حتى تبعوا، لكنه لم يتعب.. سرقوا دراهمه، فصبر واحتسب، بينما انحط مستوى رجالات قريش ووجهائها إلى الحضيض. ها هو رجل من وجهائهم على الإطلاق ينحدر به الشرك عندما يواجه خباباً إلى مستوى الوضاعة، فينزل الله في ذلك قرآناً يخلد خباباً.. قرآناً تتلوه الأمة كلها.

يقول هذا الحر الأبي: (كنت رجلاً قيناً^(١))، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أطلبه. فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث.

قال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾^(٢).

ولما ازداد إصرار خباب على هذا الدين وتمسكه برسول الله ﷺ، أخذ هذا الجلف (فكان ممن يعذب في الله)^(٣) ليتراجع، فلا يتراجع.

فليذهب ماله.. إنه لا يهمله، فخباب كريم بكل شيء.. بجسده.. بدمه.. بصحته.. بكل ما يملك، لكنه شحيح بدينه كسمية بنت خياط ف (لم يكن أحد إلا أعطى ما سأله

(١) عبداً.

(٢) متفق عليه.

(٣) سنده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٢: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي وثقة تلميذه أبو نعيم، تذكرة الحفاظ ٢-٦٦١، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة، حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام وهو أحد الأعلام الثقات. التهذيب ٨-٤٠٢ عن قيس بن مسلم وهو ثقة. عن طارق بن شهاب، وله رؤية.

يوم عذبهم المشركون، إلا خباباً، كانوا يضعونه على الرضف^(١)، فلم يستغبوا منه شيئاً^(٢). أي لم يحصلوا على شيء منه.

لقد كشف خباب يوماً ظهره له تقلب في جمر العذاب، وتشقق من السياط، كشف خباب ظهره لأصحابه، فإذا آثار الكي وخرائط الألم تنتشر فيه، وبعد أن أراهم تلك الآثار المحزنة التفت إليهم ثم قال: (لم يكن لي أحد يمنعي، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري)^(٣).

وقال خباب مرة وهو يحكي مأساته مع مجرمي مكة: (أوقدوا لي ناراً، فما أطفأها إلا ودك^(٤) ظهري)^(٥).

كان خباب يقول ذلك لمن حوله.. يحمل شهادته ومعاناته على ظهره، وذلك عندما تحدث الجميع عن مأساة أخيه بلال، وتلك الخطوط التي رسمها بلال في طرقات مكة بجسده العاري، عندما كان سفلة قريش يسحبونه هنا وهناك، فلم يستطيعوا أن يسحبوا كلمة إذعان واحدة ترضي طواغيت مكة.

كان بلال المنحدر من شلالات أفريقيا وأنهارها شجاعاً كأُسودِها، سخياً كسهولها.. ساق القدر أمه وأباه إلى مكة، فولد كالليل مليئاً بالأسرار والحزن والعبودية. هموم تملأ قلبه، وقيود تحز رقبتة وأدميته. كانت حياة أسنة عكرة لا بشائر فيها حتى سمع برسول الله ﷺ، فوجده يحمل ما كان يبحث عنه.. الحرية والعدالة.

كم تشققت قدماه وهو يبحث عنها، فلم يجد عند قريش والعالم إلا سراب، ووجد الحقيقة والحلم عند محمد ﷺ، فماذا ينتظر..؟ لقد أدرك أسرار القوافل التي تمر

(١) الحجارة المحماة.

(٢) سننده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٤ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس ابن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شعبة، وهما إمامان معروفان، حدثنا أبو إسحاق وهو تابعي ثقة سمع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب قال: قال خباب..

(٣) حسن رواه ابن سعد (٣-١٦٥) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن مجالد عن الشعبي قال. وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن له شواهد كثيرة تقويه.

(٤) الودك هو الشحم.

(٥) رواه أبو نعيم (الحلية ١-٤٤) عن الشعبي قال: سأل عمر بلالاً. وظهره الإرسال. ويشهد له ما سبق.

بهذه الدنيا ثم ترتحل، وأدرك أين تستقر. قدم له النبي ﷺ إجابات عجز الفلاسفة والحكماء عن الوصول إليها.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تتبخر، ومهما طالت فلن تدوم، وأن الحياة هناك: خلف السحاب.. خلف السماء في مدائن الجمال والسحر والبهجة الخالدة.. في جنات فاتنة، أو في الجحيم وبين أودية الحميم وحفر النتن والعذاب المقيم والخيار له.

اختار بلال الرحمن، ولفظ الشيطان من حياته، وتصدى كجيش من حديد لتعذيب قريش (هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)^(١).

هذا هو بلال الجديد، الذي رفض أن يقضي حياته منحنيًا لسوط أو حجر.. كان يرمي جسده وكأنه يقول: خذوه فهو لكم، لكنكم لن تتألموا من روحي وإرادتي شيئاً ما دمت مع الله، فالروح لها طريق لا تعرفه قريش ولا تلوته أصنامها.. طريق فسيح لا تردمه الجبال.. طريق طاهر لا تمسه أيدي المشركين.

كانت مأساته مع قريش دامية مؤلمة، وكان منظره يذيب الصخر وهو يسحب في دروب مكة وشعابها.. يلعب به الصبيان والسفهاء، وهو يسقط المرة تلو المرة من الإعياء، ثم يضطر إلى الوقوف مرة أخرى من لسع الشياطين والعصي على رأسه وجسده.

كان المسلمون حوله يتحرقون، لكن ماذا بأيديهم وهم ليسوا بأحسن حال منه، حتى أشرقت شمس الحرية يوماً.. يحملها أبو بكر الصديق الحنون، فقد تقدم نحو مالك بلال.. نحو مالكة المجرم المدعو "أمية بن خلف"، فعرض عليه شراءه؟ فوافق الطاغية بعد أن كلت يدها وقدماه من الصفع والركل والضرب، فلم يظفر بشيء من ذلك العملاق المتلبط بين الشياطين، ودفع أبو بكر الثمن، وقبض المجرم، وتوجه أبو بكر نحو ساحة التعذيب يمد يده لينتشل أخاه.. لا عبده، فكيف كانت حال بلال، وعلى أي صورة وجدته..؟

رجل مخضرم عاصر الجاهلية والإسلام اسمه قيس بن أبي حازم يروي آخر فصول المأساة البلالية فيقول: (اشترى أبو بكر بلالا بخمسة أواق، وهو مدفون

(١) مر معنا وأنه حديث حسن.

بالحجارة. قالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال: لو أبيت إلا مائة أوقية لأخذته^(١).

هذه هي منزلة بلال الإنسان عند هؤلاء الملحدين، وهذا هو مفهوم الحرية عند الطواغيت دائماً: إما أن يختار ما اختاروه له فيكون كادحاً طوال الليل والنهار مهاناً ذليلاً، وإما أن يرفض إرادتهم ويسلك دروب الدعاة فيدفع الثمن باهظاً. كان النبي يقص على أصحابه المعذبين قصص الطغاة واساليبهم مع الدعاة دروساً تشدح همهم وتقوي عزائمهم، فهذا فرعون قد سبق قريشاً قولاً وفعلاً، الله سبحانه يقول عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلٰك فِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ وَقُرُوٓنَ فَمَا لُوٓا۟ سَجِرٌ كٰذٰبٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوٓا۟ ائْتٰنَا ٱلذِّكْرَ ؕ ءَاَمٰنُوٓا۟ مَعَهُۥ ۖ وَٱسْتَحْيُوٓا۟ نِسَآءَهُمۡ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُٗٓ ۗ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

موسى وهارون وما معهما من حقيقة وآيات مفسدون في نظر الطاغية فرعون، وهو لا يستحي من ترديد أكذوبته التي يقول فيها ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ويكرر المشهد، فهذه أكوام الحجارة تغطي جسد بلال المنهك، والشمس اللافحة تحمي عليه تلك الحجارة وتزيد في تعذيبه وإيلامه، لأنه يرفض أن يكون عبداً لحجر.

أما الإسلام، فالإسلام أعطى بلالاً الحرية الحقيقية، ومنحه أرقى أنواعها.. إنها تلك اللحظات التي يتحرر فيها الإنسان الضعيف من أقوى ضغوط السائد، ويتحرر فيها من الوهم الذي يسكن الملايين.. أن يقول للطاغوت المتجبر: لا. عندها يحصل على حريته الحقيقية، فلم يتتمر الظلمة إلا لأن أحداً لم يقل لهم يوماً: لا. عندما يقولها بلال، أو أي مسلم، فإن مساحة من الظلم حول ذلك الطاغوت سوف تتحسر، لتفسح المجال لحياة رغيدة ولهواء نظيف يليق بالإنسان.

(١) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، ورواه ابن أبي شيبة ٧ - ٢٢٧ حدثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس. سفيان إمام ثقة معروف، أما أستاذه إسماعيل بن أبي خالد فهو ثقة ثبت. التهذيب (٦٨/١) وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، رأى رسول الله ﷺ، وهو ثقة. انظر التقريب (١٢٦/٢).

(٢) سورة غافر، وهي سورة مكية.

مد أبو بكر يده إلى هذا المسكين لتتنفض عنه قريش والحجارة.. مد أبو بكر يده لأخيه بلال لا لعبده بلال، فلقد اشتراه ليحرره من قيد العبودية والمهانة.. ليطلقه في البيداء وفي السماء.. يشرب الماء عذباً.. يتنفس الهواء نقياً، ويعبد ربه أينما شاء متى ما شاء، بعد أن كان يكد ويكدح طوال يومه دون مقابل.. دون أجر، أو حتى كلمة شكر.

لقد قدم بلال تضحيات وتضحيات، وها هو اليوم يعيش حراً وسييداً من سادات الإسلام.. بشهادة أحد أعظم رجالات الإسلام حيث يقول: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالاً)^(١).

أما لماذا؟.. فلأنه اختار طريق محمد ﷺ وصبر مع محمد ﷺ. لقد كان يجوع يوم يجوع رسول الله ﷺ، ويتألم عندما يتألم، ويجعل من جسده درعاً أمام الرماح الموجهة إلى نبيه، كان يخاف على رسول الله ﷺ أكثر مما يخاف على نفسه. إنه باختصار: يحبه أكثر من نفسه، وهذا ما جعل الدنيا كلها تحب بلالاً وتجله.

لقد كان رسول الله ﷺ يتحدث بنفسه عن بطولات بلال رضي الله عنه.. عن معاناته فيقول: (لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخضت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون - من يوم وليلة -، وما لي وبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال)^(٢). وذلك عندما حولت عقيدة الشرك قريشاً القبيلة الجميلة الكريمة، إلى كتلة من العنف والحقد والبخل.. هكذا تعامل قريش ابنها البار، وابن سيدها وسيد العرب الكريم، تحشد له الشوك والسياط والجوع والخوف، حتى يمر به الشهر حزيناً لا يحمل إليه سوى لقمة يومية يشاطرها بلال، في وقت يتقلب فيه زبانية قريش في أنواع الملهذات، دون أن ينغص عليهم أنين المؤمنين تحت أقدامهم وسياطهم، أو حتى يحرك عواطفهم ونخوتهم.

(١) صحيح البخاري ٣ - ١٣٧١.

(٢) سننه صحيح. رواه أحمد ٣ - ١٢٠٠ وغيره من طرق عن حماد، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وحماد بن سلمة أوثق الناس في شيخه ثابت.

لقد كان معظمهم مجرمين

يحملون المال والجاه والحسب والنسب والسياط، لكن أيديهم وعقولهم خالية من الحجة والمنطق والحقيقة، فليس لديهم سوى أشياء ورثوها عن آبائهم.. فيها اختلط الحق بالباطل والجميل بالقيبح دونما تمييز، أما محمد ﷺ فقد جمع الحق كله. ورفض الشر كله، فصادموه عندما أراد أن يظهرهم ويشدهم من مستنقعات الرذيلة التي يرتكسون فيها، وكان يقود ذلك الصدام مجرمون.. تفتنوا في التعذيب والسحل والتنكيل. كان من هؤلاء عم رسول الله ﷺ: أبو لهب، وكان منهم أمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، لكن هناك من يتفوق على هؤلاء كلهم قسوة وشراسة: رجلان هما: عمرو بن هشام (أبو جهل) ورجل آخر، أما أبو جهل فكان جباراً شقيماً يتلذذ بتعذيب المؤمنين، حتى بلغ من قسوته أن انحدر الشرك بمستواه الأخلاقي فاستأسد على العجوز الضعيفة أم عمار بن ياسر، قطعنها بحرية حتى لفظت أنفاسها.. طعنها وهي المرأة الضعيفة الرقيقة.. إنها لم تشتمه، ولم تسبه.. إنما قالت: لا إله إلا الله.

لقد علمنا التاريخ دروساً عديدة، وما زال يعلمنا أن للطفة موقفاً من المؤمنين الدعاة عجباً. هذا الموقف يقول: (من كان داعية فهو عدوي)، لأن الداعية المخلص يقدم دعوته ويتناسى نفسه، وهو عكس ما يمارسه المتسلطون الذين لا يملكون سوى تقديم أنفسهم، وقد يكون الطاغية مخيراً أو مسيراً أو ساذجاً، لكن هذا الموقف لا يتغير، ومن يعير سمعه وبصره للتاريخ والأيام.. يجد المشائق والزنازين تنن أمامه من رقاب الدعاة وأجسادهم الطاهرة.. حتى رياح الحرية التي تهب أحياناً على الشعوب، نراها تمر على الجميع وتستثني الدعاة، فهم ينتزعونها انتزاعاً بدمائهم، ويمنحونها للجميع حرية للبشر للطير للشجر، ولم تكن سمية بنت خياط أول الشهداء ولا آخرهم، ولا كان أبو جهل أول المتسلطين ولا نهايتهم. كان هناك رجل يزاخمه ينافسه اسمه:

عمر بن الخطاب

لعلكم تذكرون ذلك الرجل العظيم: زيد بن عمرو بن نفيل، فهذا الرجل له ولد عظيم مثله اسمه سعيد بن زيد.. تزوج سعيد هذا من أخت رجل يقال له عمر ابن الخطاب، فكان من السابقين إلى الإسلام. سمع من رسول الله ﷺ فوجد الحقيقة

ووجد نفسه، ودعا زوجته -وهي فاطمة أخت عمر بن الخطاب- فأمنت بما آمن به، فكانت أسرة صغيرة سعيدة بالحب والإيمان والبهجة، وبعد فترة تسرب الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتطاير الشرر من عينيه ويديه، وبدأ بتعذيب أخته وزوجها، فالذي يحدث في - نظره - عار، ولن يسمح عمر للعار أن يدخل بيته. لكن أدوات عمر فشلت، فالقلوب لا تدخلها السياط، والمبادئ لا يثيها الحديد، وعمر لا يملك من أدوات الإقناع والحوار سوى بسطة في الجسم، وحفنة من السياط والعصي الغليظة.

أحضر الأغلال والحبال لأخته وزوجها، حتى قال سعيد بن زيد رضي الله عنه: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام)^(١). هكذا كان عمر، وهذا ما تفعله قريش بأطهر أبنائها، وليس لدى الضعيف المظلوم سوى الدعاء:

دعوة نبي مضطهد

أطال ﷺ التأمل بين صحابته.. يفتش عن أحد، لكنه لم يجده. لقد وجد أتباعاً مضطهدين مغلوباً على أمرهم.. يتحملون كثيراً ويعانون أكثر، لكن إلى متى؟! إلى متى وهم يتوارون ويخفي بعضهم بعضاً كأنما ارتكبوا جرماً؟ كان عليه السلام يفتش عن شخص جبار تهابه قريش، فتراجع أمامه قليلاً.. لعل فسحة من الحياة المشروعة تتسع له ولأصحابه، فيستمتعون بها كما يستمتع غيرهم، ويعبدون الله وهم آمنون. لكن الطفافة لا يرحمون. إن البهائم والطيور تطوف في مكة آمنة، أما محمد ﷺ وصحبه المساكين ففي الشعاب هائمون، يأتي إليه خباب بن الأرت يحمل جلدًا مسلوخاً وجروحاً نازفة وهماً كالجبال.. يأتي إليه خباب المسكين وقد لقي أشد العذاب من المشركين. فيقول: (يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)^(٢).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٢.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٨.

ليس هناك سوى الصبر يا خباب.. هذه هي حياة الأنبياء وأصحابهم وأتباعهم. إن احمرار وجهه ﷺ لم يكن لعدم مشروعية الدعاء، بل كان لهباً يذهب ما قد يعلو في نفوس أصحابه من الملل والضيق. إن هذا الاحمرار يقول: إن كل ما يقدمه الداعية في سبيل الله من تضحية.. من مال.. من جهد.. كل ذلك رخيص.. رخيص في سبيل الله.

إنها الجنة يا خباب.. حيث لا سلطات ولا طغاة.. حيث لا أحقاد ولا تعاسة ولا ملل، وحيث المدن الساحرة والقصور الفارهة، والطرقات المرصوفة بالجواهر والمزينة بالزهور والورود والعمود، والمراكب المبحرة والطائرة، والأجساد الفاتنة التي لا تعرف القبح ولا الأمراض ولا التعب ولا العفن.. الأجساد الفواحة بالعمود، وحيث الدهشة التي لا تفيق منها إلا على أكثر منها، ألا تحب يا خباب أن تكون مع أول من يدخلها، وقد قال حبيبك ﷺ: (أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون أنيتهم فيها الذهب أمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك)^(١).

إنها الجنة التي وعد بها الله ورسوله، فلا عجب أن مشط الأنبياء السابقون وأتباعهم بأمشاط الحديد، ونشروا بالمناشير، فقد كانت الجنة في قلوبهم. أما الدعاء فعبادة في الإسلام، كما قال ﷺ لأصحابه: (الدعاء هو العبادة، قال ريكم: ﴿أَدْعُوَنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).. حتى الأمانى التي تجول في الخواطر تسيل عند الله في مجرى الدعاء الجميل المحبوب.. حتى الأمانى الحلوة حوّلها الإسلام إلى عبادة. يقول ﷺ: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه)^(٣) وهاهو محمد ﷺ يسأل ربه، ويدعوه ويتضرع إليه أن يرزقهم ما يبحثون عنه.. رجلاً يعز الله به الإسلام. وكانت أمنيته ﷺ تحوم حول أقسى رجلين وأشرسهما في مكة كلها، فتوجه ﷺ إلى ربه ضارعاً وقال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١١٨٥.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ١-٤٦٦ وغيره من طرق عن زر عن يسيع الحضرمي عن النعمان بن بشير مرفوعاً وذر ويسيع ثقتان.

(٣) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-٤٣٤ أنا عبید الله بن موسى عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفه أصح.

بن الخطاب^(١) فقد بخلت مكة وشحت، وضافت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن.. يطوف به الوثنيون والمشركون وكل من شاء من أصحاب الملل، أما المسلمون الموحدون فلا!

ها هو الطاغية أبو جهل يهدد قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)^(٢). ويتمادى فيحلف بأخشابه وحجارته التي يعبدها فيقول (واللات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك، لأطأن على رقبتَه، ولأعفرن وجهه في التراب)^(٣).

حبيب الله ﷺ يهدده هذا الجعظ بأن يطأ على عنقه الطاهر، فماذا ينتظر البقية سوى الموت..! أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أظهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها، لكن هل البقاء فيها من أركان الإسلام؟ هل يتحتم على المسلمين أن يربطوا مصيرهم بمكة وقد ضاقت بهم وحاصرتهم جبالها، وأظلمت وديانها وشعابها..؟ هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم، وكعبة ربهم تنن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية..؟

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء نقية: الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن، ولا يرتبط بشخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.. إنه من السعة بحيث تستطيع أن تضع هذا الكون كله في زاوية من زواياه، ومكة جزء من هذا الكون.. الإسلام لا يرتبط بمكة، ولا ببيت المقدس ولا ببقية أراضي الأنبياء ولا غيرها، فلا حرج على هؤلاء الضعفاء من المغادرة والهجرة من أكرم بقاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها، متى ما وجد المستضعفون أرضاً أرحب. لكن إلى أين سيلجأ أصحاب رسول ﷺ؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله أخت عمار بن ياسر من الرضاعة، صحابية اسمها: (هند بنت أبي

(١) إسناده حسن رواه البيهقي (٢-٢١٥) وابن سعد (٢-٢٦٧) وغيرهم من طرق عن أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة التقريب ٣٦٤ أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسن الحديث (التهذيب ٢-٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ .

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤ - ١٨٩٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤ - ٢١٥٤.